الباب الثالث

بين المدينة ومكة

عن طريق اليمن والعراق

"إذا كانت رؤيتي قد امتدت إلى بعيد،

فذلك لأني وقفت على أكتاف الآخرين"

(إسحق نيوتن)

الفصل الأول

بين المدينة ومكة

المسلمون يؤمنون بالرسالة والرسول معا. صنع دينهم وحضارتهم كتاب الله وكلام النبي وعمله. فالعلم والمعلم عندهم متلازمان.. والعلم لا يؤخذ من بطون الكتب دون قراءة على شيوخ حذاق. وتلك نظرية التدريس للمستويات العليا في الجامعات. فالكتب وحدها تسع المعرفة وتخلو من الحياة. وأما الرجال فيبنون الرجال. والأستاذ عالم كامل، ينبش عرقه ويومض برقه. وفي ملازمته متعة ومعاناة، من الحوار الناطق أو الصامت مع الأشخاص والأشياء، ومع النفس. ذلك قول أرسطو: (إننا لا نعلم بأقوالنا ولا بأفعالنا وغنما نعلم بحقائق نفوسنا. إن في النفس أشعة تنفذ إلى مجاوريها فتريها لهم).

هاجر الرسول ومعه أشهر المسلمين من أهل مكة إلى المدينة فصارت مثابة المسلمين، يقيمون إلى جوار النبي أو إلى جوار قبره، ولما صارت مقره الخلفاء الراشدين أقام عمر كبار الصحابة إلى جواره ليستشيرهم. وكان يؤتي إليها بالأسرى فيبقى فيها العظماء والمتعلمون موالي لكبار الصحابة، ويقصدها الناس ليتعلموا ويتبركوا مثل عمر بن عبد العزيز. أرسله إليها أبوه قبل أن يرسله الخليفة واليا عليها (٨٧ – ٩٣). فحولته المدينة من فتى غض الإهاب والشباب ليصير ثاني العمرين، وخامس الخلفاء الراشدين، في خلافة دامت سنتين ونصف السنة فحسب.

وكان فيها إمام دار الهجرة مالك بن أنس، فكانت محط آمال محمد بن إدريس الشافعي.

كان ملك (٩٤ – ١٧٩) في العقد الأخير من حياته. طويلا عظيم الهامة، أصلع أبيض الشعر واللحية، أبيض شديد البياض إلى الشقرة. يعبر ثلاثة أرباع قرن من العمر إلى مكانة لم يبلغها في الحياة ضرباؤه. أخذ العلم عن تسعمائة شيح فأكثر. وما أفتى حتى شهد له سبعون إماما إنه أهل لذله، داره دار عبد الله بن مسعود نفسه، الأستاذ الأعلى لأبي حنيفة وكل علماء الكوفة. أرسله عمر إليها معلما وزيرا. بعد إذ كان النبي قد جعل له إذنه ع٧اليه. فكان يلج عليه. ويلبسه نعليه، ويمشي معه وأمامه، ويسترده إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام.

أما مجلس مالك في المسجد فمجلس عمر بن الخطاب نفسه، يبخر بالعود من أوله إلى فراغه تعظيما للحديث.. يطرق الخلفاء بابه، ويحسبون حسابه. وأي خلفاء: أبو جعفر والمهدي وهرون الرشيد. يطلبون الطلبات إليه، أماهو فليس له عند أحد طلبات.

فإذا أرد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة تعظيما للرسول. ويقول ويشير (كل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك إلا صاحب هذه السارية) ويقول. حدثني نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر. ويلمس بيده قبر النبي.. فأي مجلس كان ذلك المجلس.. ورسول الله حاضره!

نهاه أبو جعفر المنصور أن يحدث بحديث (ليس على مستكره يمين)، لأن الدولة كانت تستكره الناس على البيعة بأيمان يحلفونها، فحدث به على رءوس الناس. فأمر الوالي فضرب حتى انخلع كتفه.

وقصد أبو جعفر إلى الحجاز سنة ١٤٨. فاعتذر له بكل أنواع الاعتذار وقال (إني رأيت أن أجلسك في هذا البيت فتكون من عمار بيت الله الحرام وأحمل الناس على علمك. وأعهد إلى الأمصار يوفدون إليك وفدهم ويرسلون إليك رسلهم في أيام حجهم لتحملهم من أمر دينهم على الصواب.. وإنما العلم علم أهل المدينة) قال مالك: (يا أمير المؤمنين إن أهل العراق قالوا قولا تعدوا فيه طورهم.. لأنهم أهل ناحية. وأما أهل مكة فليس بها أحد. وإنما العلم علم أهل المدينة كما قال الأمير. وإن لكل سلفا وأئمة. فإن رأى أمير المؤمنين إقرارهم حالتهم فليفعل.. فاعفني يعف الله عنك)..

روي عنه شيوخه ولداته. من كل صقع من الأصقاع مثل ربيعة الرأي، والليث بن سعد. والأوزاعي، وأبي يوسف، ومحمد، وعبد الله بن المبارك، وسفيان بن عيينة.

وكان في حلقته تلاميذ من كل القارات، منهم أسد بن الفرات ومحمد بن الحسن وابن القاسم وابن وهب. أما الإمام الأعظم أبو حنيفة فكان يسعده أن يجادل إمام المدينة عند كل لقاء.

كان طلب العلم وتعليمه وما يزالان عبادة في الإسلام. ومن أجل ذلك دميت أقدام بلا عدد، وبليت قوى بلا حدود في طلب العلم. وربما لتحقيق نص واحد مما آل تدريسه إلى مالك.

رووا أن جابر بن عبد الله الأنصاري سمع وهو في المدينة أن عقبة بن عامر الجهني عنده حديث في القصاص. فخرج إلى السوق فاشترى بعيرا ثم شد عليه رحله. وسار شهرا حتى لقي حامل الحديث فقال: ما الذي جاء بك؟ قال حديث تحدثت به عن رسول الله في القصاص لم يسبق أحد يحدث به عن رسول الله غيرك. أردت أن أسمعه منك قبل أن تموت أو أموت.

ومن قبل مالك. كان يجلس في الحرم النبوي ربيعة بن أبي عبد الرحمن (١٣٦)، (ربيعة الرأي) أستاذ المدينة وابن شهاب الزهري ٠١٢٤) الذي قال فيه الليث بن سعد: ما رأيت عالما قط أجمع من الزهري. يحدث في الترغيب فنقول لا يحسن غيره وإن حدث عن الأنساب قلت لا يحسن إلا هذا. وإن حدث عن القرآن والسنة فكذلك. ومن قبله نافع مولى عبد الله بن عمر (١١٧). ومن قبله القاسم بن محمد بن أب بكر (١٠٦) قال عنه عمر بن عبد العزيز (لو كان لي من الأمر شيء لاستخلفت أعيمش بني تيم) وسالم بن عبد الله بن عمر (١٠٦) وعروة بن الزبير (٩٤) ابن أخت عائشة وأخو عبد الله. وسعيد بن المسيب (٩٤) زوج بنت أبي هريرة – كان أحفظ الناس لأحكام عمر وأقضيته حتى سمي راوية عمر. وكان الحسن البصري العظيم يسأله فيما أشكل عليه. ومات الحسن البصري سنة ١١٠ بعد أن تربى عليه أساتذة المعتزلة.

ومن قبل مات خارجة بن زيد سنة ١٠٠. ومن قبل هؤلاء عاش وعلم بالفعل والقول عبد الله بن عمر حتى سنة ٧٣. أشركه عمر في اختيار الخليفة على أن ينتخب ولا ينتخب. وكان البعض يرى اختياره حلا لخلاف علي ومعاوية. قال جابر بن عبد الله: ما منا إلا من مالت به الدنيا ومال بها ما خلا عمر وابنه عبد الله.

ومن قبلهم أبو هريرة. راوية الرسول (٥٨) ومن قبلهم أم المؤمنين عائشة حدث عنها الصحابة (٥٨) وزيد بن ثابت – كان عمر يستخلفه في كل سفر يسافره. ظل يفتي ويقضي في عهد عمر وعثمان وعلي ومعاوية حتى توفي سنة ٤٥. وكان الحسن البصري من مواليه.

كل هؤلاء انتهى علمهم إلى مالك بن أنس. الذي يقول عنه أبو جعفر المنصور من نحو ربيع قرن مضى: ما بقي على الأرض من يستحي منه غير مالك وسفيان (الثوري).

ولما مات مالك. لم يعلم من من أهل المدينة أحد إلا أجمع عليه، في حين لم يجمعوا قبل ذلك غلا على أبي بكر وعمر.

ولم تكن الشقة بعيدة بين مكة والمدينة، وإنما البعيد هو الشقة بين التلميذ في بواكير شبابه والشيخ في القسم العالية.. والبعيد طلبة التلميذ.. لا يطلب حديثا واحدا وإنما يطلب موطأ مالك الذي جمعه في أربعين عاما، ومن ورائه علم علماء المدينة الذي انتهى إليهم من الصحابة والتابعين. فلا عجب إذا كان يستعين في رحلته إليه بتلاوة القرآن حتى يدخل المدينة في اليوم الثامن، فيختم القرآن ست عشرة ختمة. ختمة بالليل وختمة بالنهار.

وكان على طريقته من التجهز للأمر بجهازه، قد استعار الموطأ فحفظه. ثم استخار ربه، وطلب إلى والي مكة أن يقدمه لمالك، فهاب الوالي أن يكتب مباشرة لمالك، وتشفع بزميله والي المدينة لينقل كتابه.

ولا ريب كانت المعركة الدائرة بين أهل الرأي وأهل الحديث من نصف قرن مشغلة فؤاد محمد بن إدريس. وكانت الدولة مع المذهب الذي تزعمه الإمام الأعظم أبو حنيفة، إمام أهل الرأي، وتولاه بعده جماعة من الفقهاء العالميين على رأسهم قاضي القضاة ومفخرة البلاط أبو يوسف (٩٥ – ١٨٢) حتى سمي المذهب "مذهب السلطان".

يقولون باجتهاد الرأي في المسائل التي ليس لها حكم معروف، وبالقياس والاستحسان. ويضعون الأحكام لما لم يحدث من الأشياء ويشترطون في الأحاديث أن يرويها جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جماعة كذلك. ويقدمون القياس الجلي على خبر الواحد. ولا يقبلون خبر الواحد فيما يكثر وقوعه وتعم به البلوى. ويشترطون ألا يعمل راويه بخلافه، فإن عمله بخلافه يثير احتمال وجود حديث ناسخ له.

أما أهل الحديث فزعيمهم مالك بن أنس. لا يفتح باب القياس على مصراعيه: منهاجه الأحاديث والسنن التي دونها "في الموطأ". وعنده أن إجماع أهل المدينة وعملهم حجة – ففيها أقام الرسول ومات. وفيها أعمال الرسول وأقواله وآثاره وأعمال صحبه، معمولا بها، جيلا بعد جيل. وهم يعملون بحديث الواحد إذا حسن سنده، ويشترطون أن يوافقه عمل أهل المدينة.

حمل محمد بن إدريس بين أردانه – وهو في حدود العشرين من عمره – كتابي التوصية إلى المدينة.

قال الوالي: يا فتى لو كلفتني المشي من جوف مكة إلى جوف المدينة راجلا، كان أهون من المشي إلى باب مالك رضي الله عنه.

قال إن رأي الأمير أن يحضره.

قال الوالي: هيهات ليتنا إذا ركبنا إليه ووقفنا على بابه، يفتح الباب.. وركبا إلى دار مالك. وقرع الباب رجل فخرجت لهم جارية سوداء.

قال الوالي: قولي لمولاك إني بالباب.. فدخلت وأبطأت ثم خرجت.

قالت: إن موالي يقول لك: إن كانت لك مسألة فارفعها في رقعة حتى يخرج لك الجواب، وإن كان المجيء لشيء آخر فقد عرفت يوم المجل. فانصرف.

قال الوالي: قولي له إن معي كتاب والي مكة في أمر مهم.

فدخلت ثم خرجت وفي يدها كرسي فوضعته. فإذا مالك شيخ طوال متطلس، عليه المهابة. فدفع الوالي الكتاب إليه فتفحصه فلما بلغ إلى قوله: (محمد بن إدريس رجل "شريف" من

أمره كذا ومن حاله كذا وكذا) رمى الكتاب وقال: سبحان الله صار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يطلب بالوسائل.

فتقدم الشافعي وقال: أصلحك الله إني رجل مطلبي [٢١] من حالي ومن قصتي كذا وكذا.

فلما سمع كلامه نظر إليه ساعة. وكانت لمالك فراسة.

قال مالك: ما اسمك؟

قال: محمد

قال مالك: يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فسيكون لك شأن من الشأن.

قال: نعم وكرامة.

قال مالك: إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية. غدا تجئ بمن يقرأ لك الموطأ.

وفي رواية أنه قال: تمضي إلى حبيب كاتبي، فإنه الذي يتولى قراءته.

قال الشافعي: إني أقرأه من الحفظ.

وفي رواية أنه قال: تسمع مني رضى الله عنك صفحا، فإن استحسنت قراءتي قرأته عليك وإلا تركت.. فآتاه سؤله. وشرح مالك صدرا بقراءته. فقرأه عليه أجمع.

---

(٢١) من بني المطلب بن عبد مناف.

وكان إذ هو يقرأ، يتصفح الورقة صفحا رقيقا بين يديه كيلا يسمع وقعها، ويتردد مخافة أن يمل الأستاذ من طول ما يقرأ.. وفهم الأستاذ، وقد أعجبته قراءته، فقال: يا فتى زد. أو قال هيه.. حتى قرأه الشافعي في أيام يسيرة.

أتم التلميذ القراءة وأقام نحو عشر سنوات يستمع إلى شروح الأستاذ.. في مجلس ليس فيه لغط ولا مراء ولا رفع صوت. فإذا قال الأستاذ، امتثل ما قال. وإذا سئل فأجاب لم يناقشه السائل.

وكان بالمجلس تلاميذ آخرون منهم الدائمون مثل "المغيرة بن عبد الرحمن" يلازم مالكا ويقعد مقعدا لا يجلس فيه سواه، ومثل "معن بن عيسى القزاز"، ريب مالك.. قرأ عليه الموطأ للرشيد وولديه الأمين والمأمون، وكان الشيخ يتكئ عليه عند خروجه من المسجد حتى سمي "عصية مالك". وكان هناك آخرون يقدمون ويرجعون إلى بلادهم في كل أرجاء العالم الإسلامي.

***

تعلق التلميذ بأستاذه وتعلق به الأستاذ، فقر به نجيا. وكان يقول: ما أتاني قرشي أفهم من هذا الفتى.

وذات يوم رأى الفتى على باب مالك أفراسا من خراسان وبغالا من مصر فقال لمالك: ما أحسنها؟ قال الأستاذ: هي هدية مني إليك يا أبا عبد الله – قال الشافعي: قلت دع لنفسك منها دابة تركبها.. قال: أنا أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة، فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. بحافر دابة.

ولم ير مالك راكبا بالمدينة قط.

ولو لم تتوطد الأسباب بين الشيخ وتلميذه، لرجع إلى بلده مثلما صنع محمد بن الحسن، بعد إذ قرأ الموطأ. ومثلما صنع العشرات في طول حياة مالك. وكان يدعوه إلى القفول راجعا إلى مكة أن فيها أهله وعشيرته، وأنه مأذون فيها بالإفتاء.

وتتراءى وثاقة العلاقة في عبارات المحبة له والعرفان بصنيعه، حين يحكي قولا لمالك فيسميه أستاذنا. ويقول: عنه أخذت العلم. وأقوالا أخرى مثل "إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب" و"العلم يدور على ثلاثة: مالك والليث وسفيان بن عيينة"، بل "ما في الأرض كتاب ففي الفقه والعلم أكثر صوابا من كتاب مالك" أو "مالك وابن عيينة القرينان. ولولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز".

وجعلته الرواية عن مالك صاحب إسناد هو إسناد مالك: وإسناد مالك أشرف الأسانيد أو "سلسلة الذهب": مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر عن النبي. فليس بين مالك والنبي إلا اثنان، وليس بين الشافعي والنبي إلا هما ومالك. أما أبو حنيفة وقد سبق الشافعي بأكثر من نصف قرن فكان اتصاله بالنبي عن طريق أربعة: حماد بن إسماعيل، فإبراهيم النخعي، فعلقمة النخعي، فعبد الله بن مسعود عن النبي عليه الصلاة والسلام.

وانطلق الفقيه الشاب إلى حلق الحرم النبوي كافة، مثل حلقة إبراهيم بن سعد الأنصاري، وحلقة عبد العزيز بن محمد الدراوردي، وحلقة إبراهيم بن أبي يحيى الأسامي، وحلقة محمد بن سعيد بن أبي فديك، وحلقة عبد الله بن نافع الصائغ – وكثيرا ما تتردد أسماؤهم في رواياته.

وكان ابن أبي يحيى من المعتزلة، لكن الفتى الحر الفكر، يرد مناهل العلم أينما تكون. فرماه المتعصبون بالاعتزال، من جراء جلوسه إلى إبراهيم. فكان إذا قال "أخبرني من لا أتهم"

يريد إبراهيم بن أبي يحيى. وإذا قال: "أخبرني الثقة عن الليث بن سعد" يريد يءحيى بن حسان (أستاذه في اليمن). وإذا قال أخبرنا الثقة عن ابن جريح فهو يريد مسلم بن خالد.

فإذا ذكر مالكا في معرض الرد عليه أو معرض نقده لم يسمه باسمه تحية وتجلة، كمثل أن يقول: قال صاحبنا. وأصبح أهل المدينة كلهم أصحابه وأهل بلده. قال الربيع (إذا قال بعض الناس، فهم المشرقيون. وإذا قال بعض أصحابنا أو بعض أهل بلدنا، فهو مالك).

كانت هذه الفترة من أيام شبابه حلوة حلاوة أيام يفاعه بمكة، أو بالبادية، لكنها تمتاز بفناء التلميذ في ذات أستاذه. فلا نستمع إلى محاورات بينهما، أو بينه وبين الآخرين من الأستاذة أو التلامذة. وربما كان مرد ذلك إلى أن الطابع الغالب في المدينة، كان الاتباع لا الجدل. فهي "دار السنة" حيث يسود حفظ الأخبار والآثار والاقتداء بها.

وبهذا استمر يشهد اجتهاد مالك ولا يضيع أوقاته سدى. فاجتمع إليه من حلقات أساتذة المدينة الستة. علم المدينة أهل كله. فكانوا أكثر أساتذة بلد روي عنهم.

وانضاف علم أساتذته الستة بالمدينة. إلى علم أساتذته الخمسة الذين روي عنهم بمكة. ومع ذلك لم يجلس للإفتاء في المدينة أو في مكة بعد إذ مات مالك. بل سنراه يصنع الصنيع نفسه بعد إذ يجتمع له علم اليمن وعلم الشام وعلم مصر، عن طريق اثنين من الأربعة الذين روي عنهم من اليمن.. وإنما يرجع ذلك إلى إحساسه العميق بأن ثمة عالما مترامي الاطراف لم يعرف بعد حدوده. هو فقه العراق. فلا يستوي له مجلس للفتيا إلا أن يضع يده على ذلك الفقه.

ومن أجل هذا التقدير الصادق للحقائق انصرف إلى العمل مع الولاة.. فالعمل للولاة أيسر أمرا وأهون خطرا من القعود للفتيا. قيل لعب الملك بن مروان: عجل الشيب عليك يا أمير المؤمنين قال: "وكيف لا يعجل وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة موة أو مرتين".

فكيف بمجالس الفقه!

والشافعي يحفظ كلمات مالك: من أحب أن يجيب عن كل مسألة فليعرض نفسه على الجنة والنار ثم يجيب. وقد أدركناهم إذا سئل أحدهم فكأن الموت أشرف عليه.

الفصل الثاني

بين اليمن والعراق

صعدت روح مالك إلى بارئها.. وكان محمد بن إدريس قد غدا أمل القرشين.

واتفق أن والي اليمن قدم إلى المدينة، فكلمه مصعب بن عبد الله القرشي قاضي اليمن وبعض القرشيين ليصبح الشافعي للعمل له. ورحل الشافعي معه بعد أن رهن داره وعجزت أمه عن معونته. قال "لم يكن عند أمي ما تعطيني.. فرهنت دارا. فلما قدمنا.. عملت له على عمل".

وفي نجران باليمن، استعمله الوالي في أعمال كثيرة، أداها بنجاح – وأثنى عليه الناس وحمدوا له صنيعه. وظل زمانا يقوم بواجبه، ولم يكف عن الجلوس إلى الأساتذة كلما رجع إلى الحجاز.

وتزري به إبراهيم بن أبي يحيى لانصرافه عن الفقه إلى العمل مع الولاة. قال له: تجالسوننا وتسمعون منا فإذا ظهر لأحدكم شيء دخل فيه.

أما سفيان بن عيينة، فكان أرفق وأرق. قال: قد بلغنا ولايتك، فما أحسن ما انتشر عنك وأديت الذي عليك. ولا تعد.

وهاتان اللهجتان أثران أو مظهران لنهج المعتزلة، وطريقة أهل السنة. سنلتقي بما شابه لها بعد، في الأول عسر وقسوة، وفي الثانية يسر ورحمة أو قصد ونصفه. ولا عجب إذا فزغت نفس الشافعي من المنافرة ونزعت نحو المياسرة. قال "موعظة ابن عيينة أبلغ مما صنع ابن أبي يحيي". والحق معه. فإنما كان كلام سفيان موعظة، أما كلام ابن أبي يحيى فكان تقريعا. والكلمة الغليظة ليست هي الكلمة المعلمة.

وربما شاقت الشافعي اليمن فقصد إليها سعيا إلى أساتذة آخرين.

فلقد أخذ العلم في اليمن على مطرف بن مازن الصنعاني [٢٢] وعمرو بن أبي مسلمة صاحب الإمام الأوزاعي إمام الشام، ويحيى بن حسان صاحب الليث بن سعد إمام مصر، وهشام بن يوسف قاضي صنعاء، فلم تذهب أيامه بددا، بل كانت مجازا لعلوم الإمامين العظيمين في مصر والشام. كما أتيح له أن يدرس التنجيم والطب، باعتبار التنجيم فرعا من العلوم الرياضية، والطب فرعا من العلوم الطبيعية، فظل إلى أواخر عمره يجيد علم الطب ويقول: علم الأديان الفقه وعلم الأبدان الطب.

---

(٢٢) قيل في بعض الروايات إن مطرف بن مازن قاضي صنعاء، أدخل الشافعي في التهمة التي حشر من جرائها إلى الرشيد. لكن الشافعي سيروي عن مطرف في كتابه "الأم". وليس مقبولا أن يروي الشافعي عمن كذب.

ويقولون إنه جمع في اليمن كتب الفراسة واشتغل بها حتى مهر فيها.

كان يقول (احذر الأعرج والأحول والأعور، وكل من به عاهة في بدنه ونقصان في خله، فإن معاملته عسرة وشاقة).

مر في طريقه برجل واقف في فناء داره أزرق العنينين ناتئ الجبهة. قال الشافعي في نفسه: هذا أخبث ما يكون في الفراسة. وسأله الشافعي: هل من منزل؟ قال: نعم. ثم يروي الشافعي: فأنزلني، فما رأيت أكرم منه. وبعث إلي بعشاء طيب وعلف دابتي وفراش ولحاف. فقلت: علم الفراسة دل على غاية دناءة هذا الرجل، وأنا لم أشاهد منه إلا الخير. فهذا العلم باطل.. ولما أصبحت قلت للغلام أسرج الدابة. فلما أردت الخروج قلت له إذا قدمت مكة ومررت بذي طوي، فاسأل عن منزل محمد بن إدريس فقال الرجل: أمولى أبيك أنا؟ قلت.. قال فأين ثمن الذي تكلفت لك البارحة؟ قلت: وما هو؟ قال: اشتريت لك بدرهمين طعاما وأداما بكذا وعطرا بكذا، وعلف دابتك بكذا واللحاف بكذا. قلت يا غلام أعطه.. فهل بقي شيء؟ قال كراء المنزل" فإني وسعت عليك وضيقت على نفسي.. قال الشافعي: فعظم اعتقادي في كتب الفراسة.

قال تلميذه الحميدي: قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه خارجا من مكة. فكان الناس يأتونه فيعطيهم. فما برح حتى فني الذهب.. وربما فسر لنا ذلك امتداد عمله في اليمن بضع سنين، وأنه لم يكن لديه

يوم سيق إلى رشيد إلا خمسون دينارا.

بهذا تم له الفقه والعلم، واللغة والسير، والتنجيم والطب، والرماية والفروسية، فتعددت نواحيه. ككل شخصية عظيمة في التاريخ، من جابر بن حيان، والكندي، والخوارزمي. والرازي،

وابن الهيثم، والبيروني، وابن سينا، وابن رشد، إلى آخرين سيظهرون بعد قرون مثل دافنشي، وبنيامين فرانكلين، وبريستلي، ونيوتن، ولا فوازييه، ومن قبلهم أرسطو المعلم الأول.

وكان ريب الليالي هناك بالمرصاد، فحمل إلى الرشيد بالرقة لتصير المحنة ختاما لعمله، لكنه أفاد منها إدراكا لواقع الحياة، ومقاربة للسلطة لازمين للمشرعين. وأفاد منها اللقاء العلمي بمحمد بن الحسن.

وفي الحكم، فكر وعمل ودراسات وسياسات ومسئولية. ولا يصيب الفقه نجحا إذا هو اعتزل الجمهور الذي يشرع له ويفتيه. فإنه عندئذ يباعد بين الفقه وبين التطبيق.

أيا كان الأمر، فلم يكن الشافعي بمستطيع أن يتفادى مقاديره. ولقد كتبت له السماء مصيره.. والإنسان مخير في حدود ما قدر له. ولم يكن فيما قدرته السماء إلا الخير للإسلام.

لم تسقط من حساب العلم هذه السنوات في اليمن، ولم تك أدنى أثرا من العامل السلبي يلتقي بالعامل الإيجابي فتحدث الكهرباء، أو من الصفر الذي تتكون به الأرقام فتزداد. بل كان قيامه بواجبه والافتيات عليه طريقه إلى المحنة ليعيد تقدير أمره. فخرج من بلاط الرشيد ليدخل مكة – مثلما خرج منها – رجل علم. ويعود إليها بما كان ينقصه، وكأنه كنز ألقى به القدر هدية، أو كأنما كان الظفر به واحدا من انتصاراته في المحاكمة.

فلقد قضى الشافعي في العراق أشهرا ثم بارحها بكتاب العراق، ليواجهها في الغداة باتجاه مضاد. فيصبح لفعل المذهب الحنفي والمذهب المالكي، رد فعل من المذهب الشافعي، ويضحى الفعل ورد الفعل، كأنهما ذراعان يضمان فقه الإسلام، ومن اجتماع قواهما تتقدح الأشرار وتوقد الشعلة.

في العراق:

دون محمد بن الحسن مذهب أبي حنيفة، بعد إذ مات في سنة ١٥٠ فصار في متناول الدارسين. وكان محمد وأبو يوسف قد مالا بعد وفاة أستاذهما بعض الميل إلى التخفيف من التشدد في تلقي السنن والأحاديث. بل صار أبو يوسف كما قال يحيى بن معين [٢٣] يحب أصحاب الحديث ويميل إليهم. أما محمد فأقام على باب مالك ثلاث سنين في حكم المهدي (١٥٨ – ١٦٩) يسمع الموطأ. وعاد يحدث أهل العراق. فإذا حدث بحديث مالك امتلأ منزله وكثر الناس حتى يضيق عليه الموضع.

وكان قد مضى ثلاث قرن على وفاة أبي حنيفة، ذاع في أثنائه موطأ مالك في العراق، وترعرع الشافعي.

هو ذا اليوم في دار محمد بن الحسن، أو في حلقته، يعجبه منه كثير فقه، وتعجبه لغته وتلاوته. فيقول عنه: كنت أظن إذا رأيته يقرأ القرآن كأن القرآن نزل بلغته.

قال بعد سنوات: "وقدمنا على هرون.. ومعي خمسون دينارا.. ومحمد بن الحسن يومئذ بالرقة، فأنفقت الخمسين دينارا على كتبهم..".

هكذا بقي معه من سفرته الأخيرة لليمن خمسون دينارا فحسب.. أنفقت في النسخ.. فكم كانت هذه الكتب التي نسخت؟ إنها لا مراء كتب مدرسة نصف قرن بتمامه. ولذلك حمل منها،

---

(٢٣) خلف له أبوه مليون درهم وخمسين ألف درهم فأنفقها كلها على الحديث – قال فيه ابن حنبل: كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فهو ليس بحديث.

كما قال، وقر بعير. وفي عبارة له "حملت عن محمد بن الحسن حمل بختي (نوع من الإبل) ليس عليه إلا سماعي".

ولم يقف جهده على القراءات والأسمعة. فكلامه أغلى بضاعة. ولذلك حفلت المصنفات بالمحاورات بينه وبين محمد. وهما لا شك كانا يتبادلان النظر في الموطأ وفي صاحبه، هذه الثروة المزدوجة بينهما. ومحمد يقدر مسئوليته حياله. لقد أعلن أستاذهما مالك، أنه لم يأته قرشي أفهم من الشافعي، فهو أجدر الرجال بأن يكون "عالم قريش" الذي يملأ طباق الأرض علما، كما عبر الرسول. ولقد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبين العلم. فالاحتفال بالشافعي وفاء بعهد الله عموما. ونفاذ لحديث النبي في خصوص قريش. ووفاء بدين لمالك في خصوص الشافعي. أو نفاذ وصية فكرية له [٢٤].

---

(٢٤) من قبل ذلك رحل أسد بن الفرات من الأندلس إلى المدينة فسمع مالكا. وإلا بغداد فسمع محمدا، وإلى مصر فسمع أشهب وابن القاسم لينقل فقه مالك عنهما إلى أفريقية، ومنها ينتقل إلى الأندلس. وكان محمد يدرس له بالليل بعد إذ يدرس بالنهار مع الناس. وكان يبيت في سقيفة بيت يسكن محمد في علوه. فينزل إليه في الليل ويضع بين يديه قدحا من الماء ثم يأخذ في القراءة، وكلما رآه نعس، ملأ يده ماء ونضح به على وجهه فينتبه. ثم عاد أسد ليصير قاضي القضاة في القيروان وأمير البحار الذي فتح جزيرة صقلية، ومات في حصار سراقوسة، فمكن للإسلام في جزر البحر الأبيض. وهيأ للحضارة الإسلامية معبرا أساسيا إلى أوربا، وكان من حقه أن يقول (ضربنا في طلب العلم آباط الإبل واغتربنا في البلاد ولقينا العلماء، وغيرنا طلب العلم خلف كانون أبيه ووراء منسج أمه. ويريدون أن يلحقونا؟!).

ويملك الشافعي الحياء إذ يصفيه محمد بأعظم الرعاية. يلقاه راكبا في طريقه إلى السلطان فيترجل ليعود معه، فيرجوه ملحا، أن يمضي إلى موعده، لكن محمدا يؤثر مجلسه معه، على مجلس مع السلطان.

ثم يقول محمد: إن كان أحد يخالفنا ونثبت له، فالشافعي رضي الله عنه. قيل لم؟ قال لتأنيه وتثبته في السؤال والاستماع – أما الشافعي فيقول: ما ناظرت أحدا إلا تغير وجهه، ما خلا محمد بن الحسن.

والحق أن محمدا كان بإزاء ظاهرة جديدة، أما الشافعي فكان يتعلم على إمام عصره.

ويقف الشافعي ندا لمحمد.. وربما قطعه.

روى الشافعي أن محمدا قال له يوما بلغنا أنك تخالفنا في مسائل الغصب.. فقلت أصلحك الله إنما هو شيء أتكلم به في المناظرة.. فإني أجلك عن المناظرة.

فقال: ما تقول في رجل غصب ساحة وبني عليها جدارا وأنفق عليها ألف دينار، فجاء صاحب الساحة وأقام شاهدين على أنها ملكه؟

قلت: أقول لصاحب الساحة: ترضى أن تأخذ قيمتها؟ فإن رضي، وإلا قلعت البناء ودفعت ساحته إليه.

قال: فما تقول في رجل غصب لوحا من خشب فأدخله في سفينة وصلت السفينة إلى لجة البحر، فأتى صاحب اللوح بشاهدين عدلين. أكنت تنزع اللوح من السفينة؟

قلت: لا.

قال: الله أكبر.. تركك قولك!

قال: ما تقول في رجل غصب خيطا من إبرسيم، فمزق بظنه فخاط بذلك الإبريسم تلك الجراحة، فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين أن هذا الخيط مغصوب. أكنت تنزع الخيط من بطنه؟

قلت: لا.

قال: الله أكبر.. تركت قولك! وقال أصحابه أيضا تركت قولك!

قلت: لا تعجلوا. أرأيت لو كان اللوح لوح نفسه، ثم أراد أن ينزع ذلك اللوح من السفينة حال كونها في لجة البحر، أمباح له ذلك أم يحرم عليه؟

قال: يحرم عليه.

قلت: أرأيت لو جاء مالك الساحة وأراد أن يهدم البناء وينزعها أيحرم عليه ذلك أم يباح؟

قال: بل يباح.

قلت: رحمك الله، فكيف تقيس مباحا على محرم؟!

قال محمد: فكيف يصنع بصاحب السفينة؟

قلت: آمره أن يسيرها إلى أقرب السواحل، ثم أقول له: انزع اللوح وادفعه إليه.

قال محمد: قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا ضرر ولا ضرار في الإسلام.

قال الشافعي: من ضره؟ هو ضر نفسه.

وتابع الشافعي الحجاج قال: ما تقول في رجل من الأشراف غصب جارية لرجل من الزنج في غاية الرذالة، ثم أولدها عشرة كلهم قضاة سادات أشراف خطباء. فأتى صاحب الجارية بشاهدين عدلين أن هذه الجارية التي هي أم هؤلاء الأولاد مملوكة له.

قال محمد: أحكم بأن أولئك الأولاد مماليك لذلك الرجل.

قال الشافعي: أنشدك الله، أي هذين أعظم ضررا: أن تقلع الساحة وتردها لمالكها أو تحكم برق هؤلاء الأولاد؟

فانقطع محمد بن الحس.

وهذا مثل آخر.

قال الشافعي: قال لي محمد بن الحسن. صاحبنا أعلم أم صاحبكم؟ (يعني أبا حنيفة ومالكا) قلت نشدتك الله، من كان أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

قال محمد: مالك. لكن صاحبنا أقيس.

فقلت نعم – ومالك أعلم بكتاب الله تعالى، وناسخه ومنسوخه وسنة رسول الله من أبي حنيفة. فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسول الله كان أولى بالكلام..

وكانت أخبار محمد حديث بغداد.. قالوا بلغ الرشيد ظفر الشافعي في الجدل. فقال: أما علم محمد أن رسول الله قال إن عقل الرجل من قريش عقل رجلين؟

لقد كان محمد على حق عندما قال لتلاميذه (إن تابعكم الشافعي، فما عليكم من حجازي كلفة بعده).

لم يقتصر الشافعي على مجالسة محمد، بل جالس بعضا من فحول العراق كالحسن ابن زياد ووكيع بن الجراح، ولم يقتصر على كتب الفقه، بل جمع كل ما قدر عليه، ودرس على عادته كتب التنجيم التي صارت في متناوله، ورأى ألا يبقى في العراق أكثر من الأشهر التي بقيها، فعاد يغذ الخطى إلى أهله بمكة، طاويا جوانحه على تجربة أعوام من البصر بالأمور، ومن اللغوب والمحنة.. وأني له أن يمكن لعلوم أهل السنة، في موطنها الأصلي: موطنه.

وانجلت الغاشية التي غشيته عن أمور كشفت له عن مكانه:

لقد وجد محمد بن إدريس نفسه في أخطر مكان. من تحت أخمصه الحشر.

ووجدها في أنسب زمان، حين كان الفقه الإسلامي بحاجة إلى إمام من مستوى الإمامين اللذين قضيا. ولم يكن لمحمد بن الحسن في الحياة إلا قليل.. كأنما قدرت السماء أن يبقى قدر ما ينقذ للمسلمين الإمام المنتظر.. وقدر ما يعلمه.

ووجدها. ثالث ثلاثة. هم الرشيد، وصاحب الإمام الأعظم، وهو..

وسيبقى عاملا على مكانته. في مستوى أعظم رجل في الدنيا، وأعظم رجل في الدين.